هو

رحلة في رحاب الأساطير القديمة ... فعلاً، ما

مارك فيرنون *

ترجمة **أحمد شافعي**

ثمة دلالة أكيدة في إحصاء يقول إن أكثر الأسئلة شيوعاً لما يبدأ بـ «ما هو ... [أو What is] على محرك غوغل خلال العام الماضي هو سؤال: ما الحب؟ هذه المعلومة بحد ذاتها قد تكشف شيئاً عن المجتمع الذي يلوذ أفراده بمحرك بحثي إلكتروني ليسألوه مثل هذا السؤال، أكثر مما يمكن لأي إجابة محتملة أن تكشف عن الحب. لكن إلام نلجأ طلباً لفهم الحب إذا لم نلجأ إلى غوغل؟ آلات صناعة الفانتازيا الهوليودية والبوليودية تصر على أن هناك إجابة واحدة هي الجديرة بأن نلوذ إليها: النوع الرومنتيكي. ذلك أمر يوافق عليه أغلب الناس ولو بحكم التعريف. فهم منساقون إلى البحث عن الشخص الذي سوف يجعل من الواحد منهم «كلاً» مكتملاً في مواقع البحث عن شريك، أو من خلال وسيلة أخرى قد تكون أقل مادية، ولكنها ليست بأي حال أقل قياماً واعتماداً على نفس الثقافة السائدة التي تصر على أننا لا بد من أن نعثر عليه: «ذلك الشخص المختار». ليس ذلك بالمسعى الحديث على أي حال. منذ أن كتبت الشاعرة سافو في القرن السابع قبل الميلاد عن الحب الرقراق تحت جلدها رقرقة الريح في غصون الشجر، بات الحب الرومنتيكي طاغياً على الخيال البشري لا سبيل إلى مقاومته، بل إنه بات تجربة حاسمة تمثل الذروة في الوجود البشري كله.

غير أن إحصائيات غوغل تشير إلى أن ثمة أيضاً بحثاً عالمياً صامتاً يؤكد أننا غير قانعين بالإجابة الرومنتيكية. قد تكون المشكلة الحقيقية أن الثقافة المعاصرة لا تهيئنا للتفكير في الحب إلا في شكل ذي بعد واحد. ومثلما استولى الزواج بقوة الاحتكار على كل صور التأكيد العلني للحب، احتكرت الفكرة الرومنتيكية خيالنا في ما يخص علاقة التحاب.

خلافاً لنا، لم تكن لدى الإغريق القدامى كلمة واحدة تعني الحب، بل كلمات كثيرة. وكثيراً ما يشار إلى أنهم كانوا يقولون «فيليا» philia (أي الصداقة) و«إيروس» eros (الرغبة) و«ستورج» affection (الميل) و«أجاب» agape (الحب غير المشروط). لعل تلك تمثل جزءاً آخر من مشكلتنا. فلغتنا نفسها تدعونا إلى التفكير في الحب بوصفه شيئاً واحداً موحداً، في حين أنه أبعد ما يكون عن ذلك. وإنني أستبعد أن تكون الكلمات وحدها كافية للتعامل مع هذا العجز المعاصر. فما نحن بحاجة إليه هو إحساس جديد بتنوع تجارب الحب. ومن حسن الحظ أن لدينا عند أسلافنا القدامى مخزناً آخر يمكننا الاعتماد عليه: وليس هذه المرة مخزن مفردات، بل مخزن أساطيرهم القادرة على أن تنير عقولنا.

نحن بمعنى من المعاني متخمون بهيمنة الحب الرومنتيكي، فليس ممكناً ببساطة أن نزيح هذا الحب لصالح الصداقة مثلاً. هذا أمر لن يفلح نهائياً، فالجانب الإيروتيكي بالغ القوة. لكن بوسع الأساطير القديمة أن تدلنا على السر الذي يجعل الرومنتيكية بضاعة رائجة إلى هذه الدرجة، ولو قصيرة العمر. لعل أفضل أسطورة تقتنص غواية الرومنتيكية هي فكرة أرسطوفانيس عن توأم الروح soulmate كما يعبر عنها في «مأدبة» أفلاطون. تذهب القصة إلى أن الإنسان كان له في الأصل رأسان، وأربعة أذرع ومثلها من السيقان. كنا مخلوقين على شكل كرات تتدحرج على وجه الأرض بسرعة قصوى. وانتبهت الآلهة إلى ما لهذه المخلوقات من قوة ظاهرة، فتفتّق ذهن زيوس عن خطة: أن يقطع الإنسان نصفين، لكل منهما رأس وذراعان وساقان.

باتت تلك الأنصاف المبتورة منظراً مثيراً للحزن، خاصة وقد تولدت فيها عادة تكريس أقدار كبيرة من طاقاتها التي باتت محدودة للبحث عن أنصافها الضائعة. فلقد كانت الرغبة في العثور على النصف الأخرى طاغية لا سبيل إلى مقاومتها. وبقي الأفراد في بحثهم هذا رغم تكرار الانفصالات والكوارث الرومنتيكية انطلاقاً من إيمان لا يتزعزع بأن الشخص المناسب . المختار الذي عليه العين . موجود، شاعرين أنّ ما يعد به الحب إنما هو شيء لا يقل بحال عن «الكمال».

عاشت الأسطورة حياة طويلة، تمتد بدقة إلى يومنا هذا، وهي تصف التجربة الداخلية لأولئك الذين يشعرون أن الحياة لا تكتمل بغير حب كهذا. والحق أنه لم يحدث حتى القرن الثامن عشر أن بلغ التفكير الأرسطوفاني منتهاه المنطقي حينما كتب جان جاك روسو عن كيفية وقوعه في الحب في شبابه، حيث قال في معرض تأملاته إنه لم يطمئن إلا بعد هذه التجربة إلى أنه عاش بحق. ومحصلة ذلك أن الحب الرومنتيكي أصبح هدفاً في حد ذاته. فليس مهماً الشخص الذي تقع في حبه، ما دمت وقعت في الحب. إذ لا يترك المثال الكامن في هذه الخبرة من مجال لتعقد واقع هذا الفرد أو ذاك. وذلك ما يجعل قبضة الرومنتيكية تستولي علينا وتفرغنا في ثنايا ذلك. ومثل ذلك يحدث في حالة السعي الدوغمائي إلى السعادة.

غير أن الأمر الحاسم هو أن أسطورة أفلاطون الأصلية عن توائم الروح لا تنتهي بسعادة وهمية مراوغة، بل بانحرافة. ومن هنا يمكن للأسطورة أن تعلمنا شيئاً، وأن تقترح علينا مفراً يخرجنا من معقل الرومنتيكية الحصين، حيث يشفق زيوس على البشر المقسومين. فيحرك أعضاءهم التناسلية بحيث يسمح لهم حينما يتلاقون أن يتعانقوا، فيكون من ذلك متنفس بسيط لما بهم من وجد. الجنس رشفة إذن من كأس الاتحاد، وهو يعين هؤلاء المشطورين، ولو إلى حد معين. وحدث أن مرّ هيفاستيوس، إله الصنعة، بالأزواج فوعدهم بتحقيق أمنية لهم. طلب أولئك المأساويون بصوت واحد: أن الحم بيننا، أن اصهر أحدنا في الآخر. ويمتثل هيفاستيوس. ويصبح الاثنان واحداً. ويبين الموضع الجديد طريقة أخرى للحب حينما يصل إلى طريق مسدود. ففي ظل التصاقهم بهذه الطريقة، وحملقتهم كل واحد في الآخر بلا نهاية، يفقد العشاق كل علاقة أخرى بالحياة. وفي ظل لامبالاتهم بأي شيء آخر، يكتسب الموت ملمحاً جذاباً، فيحلمون بالاشتراك معاً في النفس الأخير. وهي خرافة أخرى تعيش على التعبير الفرنسي المخفف la petite mort «الميتة الصغرى» [استعارة للأورغازم]. وفي الذروة الرومنتيكية في «روميو وجولييت». لكن حسبما يقول عالم النفس إريتش فروم Erich Fromm في «فن الحب» (الصادر 1956)، لكي يكون للحب مستقبل، ينبغي على المتحابين أن يتمكنا من الانتقال من الوقوع في الحب إلى الوقوف في الحب. لا بد للأحباب أن يعانقوا ما يقع خارج ثنائيتهم الدافئة لكي يتسنى لهم البقاء. وحسبما أوضح فرويد، قد يكون الحب الثنائي مغذّياً، لكنه بالدرجة نفسها قد يكون إقصائياً داعياً إلى الغربة، وفي الحكاية الأرسطوفانية إشارة إلى ضرورة تجاوزه.

السؤال هو كيف؟ كيف يمكن إطلاق طاقة الرغبة الرومنتيكية وتوجيهها إلى الخارج بحيث لا يقتصر دورها على تغذية حب اثنين للحياة معاً، بل إلى حب اثنين للحياة في ذاتها، إذ يعيشانها معاً. الإجابة تأتينا من أسطورة قديمة أخرى توشك اليوم أن تكون منسية تماماً. هي أسطورة إله الحب الرضيع، المعروف لنا بـ «إيروس»، ولكن الأسطورة تعرفنا بشخصية أخرى، أقل شهرة بيننا، هي شخصية أخيه. ولد إيروس لأفروديت، وفي البداية بدا كل شيء طيباً. لكن حدث أن بدأت أفروديت تلاحظ ما أزعجها. الطفل لم يكن يكبر. جناحاه بقيا برعمين صغيرين. جسمه الريان لم تنم به عضلات. بدا كأنه مسكون بروح متشبثة بالطفولة، رافضة أن تخطو باتجاه النضج. تملك القلق أفروديت، فاستشارت أختها الحكيمة ثيميس Themis. إلهة المشورة الصائبة (يمكن أن نترجم اسمها حرفياً إلى «ما يفلح» what works). نصحتها ثيميس بأن تنجب طفلاً آخر، لكن هذه المرة من آريس Ares، إله الحرب الشجاع. ومن تعليمات ثيميس أن يسمى الولد الثاني أنتيروس Anteros، الذي يكون مساوياً لإيروس. وفعلت أفروديت ما أشارت به أختها عليها. وبات الولدان متنافسين. كانا يتشاكسان، ويتناوشان، ويتشاجران، ولكنهما يحبان أحدهما الآخر، وطالما كانا يلعبان جنب بعضهما البعض، كان إيروس ينمو نمواً طبيعياً. أما حينما يفترقان، فكانت أفروديت تلاحظ أن إيروس يتقلص.

ما يأتي به أنتيروس هو الصعوبة، هو المعادل الرومنتيكي للتنافس بين الإخوة الذي يكرهه الصغار كثيراً في معرض تدافعهم من أجل لفت أنظار آبائهم، برغم أنه يمكن . شأن التوترات في علاقات الكبار . أن يكون هو الذي يصوغهم لو تم التعامل معه بحساسية. ما يأتي به

«ربيع» لبيار اوغست كو (1873)